هناك من يقول لك قضية على حسب اعتقاده ، وتكون هذه القضية كاذبة ، كأن يقول لك : فلان زار فلاناً بالأمس .

هو قال ذلك حسب اعتقاده بأن قالوا له أو رأى أثرا للزيارة ، على الرغم من أن مثل هذه الزيارة لم تحدث فيكون كذباً فقط ، أما الشرك فهو تعمد الكذب على الله وهذا يطلق عليه : « افترى إثماً عظيماً » لأنه مخالف لوجدانية الفطرة ، كأن وجدانية الفطرة تقول : لا تقل إلا ما تعرفه فعلاً وأنت متأكد بل عليك ألاّ تخالف فطرتك متعمدا وتجعل لله شريكا .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إما أن تكون هذه الكلمة صادقة فنتنهى ، وإما ألا تكون صادقة - والعياذ بالله - أى أن هناك أحداً آخر معه ، وهذا الآخر سمع أن هناك واحداً يقول : لا إله إلا أنا . أسكت أم لم يسمع ؟ إن لم يكن قد سمع فيكون إلهاً غافلاً ، وإن كان قد سمع فلماذا لم يعارض ويقول : لا ، لا إله إلا أنا ، ويأتى بمعجزة أشد من معجزة الآخر ولم يحدث من ذلك شىء. إذن فهذه لا تنفع وتلك لا تنفع ، فـ « لا إله إلا الله » حين يطلقها الله ويأتى بها رسول الله ويقول الله : أنا وحدى فى الكون ولا شريك لى ، ولم ينازعه فى ذلك أحد فالمسألة صادقة لله بالبداهة ولا جدال .

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » والافتراء كما يكون فى الفعل وفى الكلام ويكون فى الاعتقاد أيضاً . « إثم عظيم » ، وهذا يعنى أن هناك إثماً غير عظيم ، « الإثم العظيم » هو الذى يُخلّ قضية عقدية واحدة فى الكون تشمل الوجود كله هى أنه لا إله إلاّ الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عوْداً على هؤلاء اليهود :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

وتقدم أن أشرنا إلى قول الحق : « ألم تر » ، فإن كانت الصورة التى يخاطب عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرئية أمامه تكن الرؤية على حقيقتها ، وإن لم تكن مرئية أمامه وكان مراد الحق سبحانه أن يُعْلمه بها وهى غير معاصرة لرؤياه فالحق يقول : « ألم تر » يعنى : ألم تعلم ، وكأن العلم بالنسبة لخبر الله يجب أن يكون أصدق مما تراه العين ؛ لأن العين قد تكذبه والبصر قد يخدعه ، « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم » و « التزكية » هى أولاً : التطهير من المعايب وهذا يعنى سلب النقيصة ، وبعد ذلك إيجاب كمالات زائدة فيها نماء ، والتزكية التى زكّوا بها أنفسهم أنهم قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وجاء الرد عليهم فى هذه القضية بقوله الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

يعنى : إن كنتم أحباءه وأبناءه فلماذا يعذبكم ؟ إذن فهذه قضية باطلة ، ثم ما فائدة أن تقولوها لنا ؟ أنملك لكم شيئاً ؟ إذا كنتم تكذبونها على مَن يملك لكم كل شىء وهو الله ـ سبحانه ـ فما لنا نحن بكم ؟ والتزكية التى فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل وبرأوا أنفسهم من العيوب وادعوا أنهم أبناء الله وهم ليسوا أبناء الله وليسوا أحباءه ، وقالوا أيضاً :

﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وتلك أيضاً قضية باطلة ، وهنا نسأل : هل إذا زكى الإنسان نفسه بحق تكون تلك التزكية مقبولة ؟ . نقول : علينا أن نسأل : ما المراد منها ؟ إن كان المراد منها الفخر تكن باطلة ، لكن تكون التزكية للنفس واجبة فى أمر يحتم ذلك . مثاله : عندما تركب جماعة زورقاً ويكون القائد أو من يجدف أو يمسك الشراع متوسط الموهبة ، ثم قامت عاصفة ولا يقوى متوسط الموهبة على قيادتها.هنا يتقدم إنسان يفهم فى قيادة الزوارق أثناء العواصف ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن القيادة فأنا أكثر فهماً وكفاءة وقدرة منك على هذا الأمر ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ، هذه تزكية

للنفس ، وهى مطلوبة ، لأن الوقت ليس وقت تجربة ، وهو يزكى نفسه بحق ، إذن فهناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق .

ونحن نعلم قصة سيدنا يوسف ، ونعلم قصة رؤيا الملك حيث رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف !! وكان المفروض العكس ، انظر إلى الملحظية ، لأن سنين الجدب ستأكل سنين الخصب ، لكن من الذى يتنبه إلى رموز الرؤيا . فتعبير الرؤيا ليس علماً . بل هبة من الله يمنحها لأناس ويجعلهم خبراء فى فك رموز ـ شفرة ـ الرؤيا ، ودليل ذلك أن الملك قال هذه الرؤيا للناس فقالوا له : « أضغاث أحلام » ، و « أضغاث » مفردها « ضغث » وهو الحشيش المخلوط والمختلف ، لكنهم أنصفوا فقالوا :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يوسف)

لقد أنصفوا فى قولهم . لأن الذى يقول لك : لا أعلم فقد أفتى ، فمادام قد قال : لا أدرى فسيضطرك إلى أن تسأل سواه ، لكن إن قال لك أى جواب فستكتفى به وتتورط ، إذن فمن قال : لا أدرى فقد أجاب . فهم عندما قالوا : أضغاث أحلام فقد احتالوا واحتاطوا لأنفسهم أيضا وقالوا : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ، وكان الحق سبحانه وتعالى قد صنع التمهيد ليوسف وهو فى السجن عندما دخل عليه الفتيان :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ما الذى جعل الفتيين يعرفان أن يوسف المسجون هذا يعرف تأويل الأحلام ؟ لقد قالا وأوضحا العلة :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ومعنى ذلك أنهما شهدا سمته وسلوكه ، وعرفا أنه إنسان مسالم ، فلما حَزَبَهما واشتد عليهما أمرٌ يتعلق بذاتهما قالا : لا يوجد أحسن من هذا الإنسان نسأله، وقلت ولا أزال أكررها : إن القيم هى القيم ، والصادق محترم حتّى عند الكذاب ، والذى لا يشرب الخمر محترم عند من يشرب بدليل أنهما عندما حَزَبهما أمر قالا : « إنا نراك من المحسنين » .

وهل يحكم واحد على آخر أنه محسن إلا إذا كان عنده مقياس يعرف به الحسن ويميزه عن القبح ؟ وعندما قالا ذلك الأمر لسيدنا يوسف ، كان من الممكن أن يجيبهما إلى تأويل رؤياهما ، ولكن هذه ليست مهمته ، بل فكر : لماذا لا يستغل هو حاجتهما إليه لأمر يتعلق بشخصيهما ، وبعد ذلك ينفذ إلى مراده هو منهما قبل أن ينفذا إلى مرادهما منه ، فهو نبى ومن سلالة أنبياء فأوضح لهما : وماذا رأيتما من إحسانى ؟ إن عندى أشياء كثيرة :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

فقد زكى نفسه ، لكن انظروا لماذا زكى نفسه ؟ هو يريد أن يأخذ بيدهما إلى ربه هو ، بدليل أنه قال :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

إذن فالتزكية هنا مطلوبة ، وقد ردّها لله ، وأعلن أن تلك ليست خصوصية لى ، بل كل واحد من خلق الله يستطيع أن يكون مثلى :

﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك قال :

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة يوسف)

إذن فمن الممكن أن تكونوا مثلى إذا ماتبعتم هذا الطريق ، بعد ذلك قال لهم :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

أى أإله واحد أحسن أم آلهة متعددة ؟ فأنتم يا أصحاب الآلهة المتعددة جئتم لصاحب الإله الواحد مع أن التعدد - فى الظاهر - يعطى القوة ، لكن هذا التعدد أعطى الضعف . لأنكم يا أصحاب الآلهة المتعددة لجأتم إلى صاحب الإله الواحد :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فهو زكى نفسه أمامهما لكى يأخذهما إلى جانب من زكَّى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك عندما علم الملك قال : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، ويكون مقرباً منى . ثم بعد ذلك جاءت سنون الجدب التى تنبأ بها أولاً فى تفسير الرؤيا ، وأشار عليهم بضرورة الادخار من سنين الخصب لسنين الجدب ، لقد كانت التجربة إخباراً لأشياء ستحدث ، فلما وقعت علم أن المسألة ليست تجارب بل هى مسألة دقيقة . . فقال للملك :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إذن فقد زكى نفسه ، وجاء بالحيثية :

﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

لأن هذه المسألة تحتاج حفظاً وعلماً ، فهى أمر غير خاضع للتجريب ، فيجرب واحد فيخيب ، ويجرب آخر فيخيب ، لا ، إنها تحتاج لحفظ وعلم ، ومثال ذلك أيضاً عندما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقسم الغنائم ، قال له المنافقون : اعدل يامحمد ! فيقول لهم : والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، فهو يزكى نفسه ، إذن فمتى تكون التزكية مطلوبة ؟ أولاً : أن تكون بحق ، وأن يكون لها هدف عند

من يعلم التزكية وإلى من يعطيك التزكية ويثنى عليك بما فيك وما أنت أهل له فتكون هذه تزكية صحيحة ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

لأنك تزكى نفسك عند الذى سيعطى الجزاء وهو يعلم ، إذن فمن الحمق أن يزكى الإنسان نفسه فى غير المواقف التى يحتاج فيها الأمر إلى تزكية تكون لفائدة المسلمين لا لفائدته الخاصة ، والحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنّ الحق سبحانه وتعالى لاتخفى عليه خافية ، فمن الممكن أن واحداً يتصنع ويتكلف فى نفسه مدّة من الزمن أمامك ، لكن هناك أشياء أنت لا تدركها ، لكن ربنا عندما يزكى تكون تزكيته عن علم وعن خبرة ، ومع ذلك أحين يزكون أنفسهم ، أهذه محت حسناتهم ؟ لا . فعلى الرغم من أنهم زكوا أنفسهم فالحق لن يأخذهم هكذا ، ويضيع حسناتهم ولكنهم « لايظلمون فتيلا » وهذه مطلق العدالة .

ونعرف أن القرآن نزل بلسان عربى على نبى عربى ، والذين باشروه أولاً عرب ، ونعرف أن أغلب إيحاءاته كانت متوافقة مع البيئة ، وكان عندهم « النخل » وهى الشجرة المفضلة؛لأنها شجرة لايسقط ورقها ، وكل ما فيها له فائدة ، فلا يوجد شىء فى النخلة إلا وفيه فائدة .

عن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها وهى مثل المسلم ، حدثونى ماهى ؟

فوقع الناس فى شجر البادية ووقع فى نفسى أنها النخلة » قال عبد الله فاستحييت ، فقالوا : يارسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هى النخلة » قال عبدالله : فحدّثتُ أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحبُّ إلىَّ من أن يكون لى كذا وكذا »[1] .

وللنخلة فوائد كثيرة ، فكل مانأخذه منها نجد له فائدة حتى الليف حولها يحمل الجريد نأخذه ونصنع منه مكانس وليفاً و« مقاطف » و« كراسى » . وحينما يطلب سبحانه وتعالى مثالاً على شىء معنوى فهو يأتى بالشىء المحس فى البيئة العربية .

«ولا يظلمون فتيلاً» و« الفتيل » من « الفتلة » ، ومن معناها : الشىء بين الأصابع ، فأنت حين تدلك أصابعك مهما كانت نظيفة يخرج بعض « الوساخات مِثل الفتلة »، أو « الفتيل » هو : الخيط فى شق نواة البلحة ونواة التمرة ، جاء سبحانه وتعالى فى القرآن بثلاثة أشياء متصلة بالنواة .

بـ « الفتيل » هنا ، وجاء بـ « النقير » : وهو النقرة الصغيرة فى ظهر النواة ومأخوذة من المنقار ، كأنها منقورة ، وجاء بـ « قطمير » : وهى القشرة التى تلف النواة ، مثل قشرة البيض الداخلية وهى قشرة ناعمة ، إذن ففى النواة ثلاثة أشياء استخدمها الله . الفتيل و « النقير» ، و« القطمير ».

والحق يقول :

﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة النساء)

إذن فالحق سبحانه وتعالى أخذ من النواة ثلاثة أشياء ويعطينا من الشىء المحس أمامنا أمثالاً يراها العربى فى كل وقت أمامه ويأخذ الحقّ أيضا أمثالا من السماء فيأتينا بمثل : « الهلال » ، يقول فى الهلال وهو صغير :

﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يس)

فسباطة البلح فيها شماريخ ، وفيها يد تحمل الشماريخ ، فهذا اسمه « العرجون » ، والعرجون عندما يكون جديداً يكون مستقيما ، لكنه كلما

(١) رواه البخارى .

قَدْمَ ينثنى وينحنى ، فجاء لهم من الهلال فى السماء وأعطاهم مثالاً له فى الأرض « كالعرجون القديم »، والعرب قد أخذوا أمثالاً كثيرة ، لكن هناك حاجات قد لايُتنبه إليها مثل قول العربى :

وغاب ضوء قُمَيْر كنت أرقبه مثل القُلاَمَة قد قُدَّتْ من الظُّفر

فساعة تقص أظافرك تجدها مقوسة . لكن هذه المسألة لايتنبه لها كل واحد ، فهو جاء بشىء واضح وقال : « كالعرجون القديم » إذن فالحق سبحانه وتعالى حين يعطى مثالاً لأمر معنوى فهو يأتى من الأمر المحس أمامك ليقرب لك المعنى ، وعندما تأكل التمرة لاتلتفت إلى الفتيلة مما يدل على أنها شىء تافه ، والنقير والقطمير كذلك . إذن فربنا أخذ من النواة أمثلة ، وأخذ من النخلة أمثلة كى يقرب لنا المعانى . « ولايظلمون فتيلاً» .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

وقول الحق « انظر » هى أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكل خطاب لرسول الله هو خطاب لأمته ، وعرفنا من قبل أن « الافتراء » : كذب متعمد « يفترون على الله الكذب » فى قولهم عندما أرادوا أن يزكوا أنفسهم :

﴿ نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وقولهم :

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ (من الآية ١١١ سورة البقرة)

« انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبينا » ، لماذا ؟ لأنك إن تكذب على مثلك ممن قد يصدقك فهذا معقول ، لكن إن تكذب على إله فهذه قحة ؛ لذلك قال الحق : « وكفى به إثماً مبينا » .

إذن فالكذب مطلقاً هو إثم و الكذب المبين : هو الكذب على الله ، والمهم أنه لم يُفدك .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

قوله : « أوتوا نصيباً من الكتاب » يعنى عندهم صلة وعلاقة بالسماء وبالرسل ، وبالكتب المنزلة من السماء على الرسل التى تحمل مناهج الله ، ولو كانوا أناساً ليس لهم مثل هذا الحظ لكان كلامهم هذا معقولا لانقطاع أسباب السماء عنهم . إنما هؤلاء عندهم نصيب من الكتاب ، وأولى مهمات الكتب السماوية أن تربط المخلوق بالخالق ، وربط المخلوق بالخالق هو ترييب لقدرات المخلوق وتنميتها ؛ لأن أسباب الله فى الكون قد تعزّ عليك ، وقد تقفر يدك منها . فإذا لم يكن لك إله تلجأ إليه عند عزوف الأسباب انهرت ، وربما فارقت حياتك منتحراً ، لكن المؤمن بالله ساعة تمتنع عنه أسبابه يقول : لاتهمنى الأسباب ، لأن عندى المسبب .

إذن فالإيمان بالله يعطيك قوة . والإيمان بالله يقف المؤمنين على أرض صُلبة ، فمهما عزّت أسبابك وانتهت فاذكر المسبب . وحين تذكر المسبب تجد آفاق حياتك

رحبة ، فالذين ينتحرون إنما يفعلون ذلك لأن الأسباب ضاقت عليهم ، وعلموا أنه لامناص من أنهم فى عذاب . لكن المؤمن يقول : يارب ، وبمجرد أنه يقول : يارب ، فهذا قول يريحه حتى قبل أن يجاب ؛ لأنه التفت إلى مسبب الأسباب حين عزّت عليه الأسباب .

وساعة يلتفت إلى مسبب الأسباب عند امتناع الأسباب فهو يأخذ قوة الإيمان من حيث لايحتسب ، إنك بمجرد أنك قلت : يارب تجد نفسك قد ارتاحت ؛ لأنك وصلت كل كيانك بالخالق ، وكيانك منه ما هو مقهور لك ، ومنه ماهو غير مقهور لك . والكيان نفسه سيأتى فى الآخرة ويشهد على الإنسان .

ستشهد الأرجل والجلود وغيرها من الأبعاض . لأنها فى الدنيا كانت مقهورة لإرادتى ، أنا أقول ليدى : افعلى كذا ، ولرجلى : اسعى لكذا ، وللسانى : سب فلاناً ، فالله سخر الجوارح وأمرها : ياجوارح أنت خاضعة لإرادة صاحبك فى الدنيا . لكن فى يوم القيامة أيكون لى إرادة على جوارحى ؟ لا ، ستتمرد علىّ جوارحى :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وتقول الجوارح لنا : أنتم استخدمتمونا فى الدنيا وجعلتمونا أن نفعل أشياء نحن نكرهها ، فدعونا اليوم لنشهد ، إنها تخرج أسرارها ؛ لأن الملك الآن للواحد القهار :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير الله إرادة على الأبعاض .

إذن فالنصيب من الكتاب هو أول شىء يربط المخلوق بالخالق ، فإذا ارتبط

المخلوق بالخالق قويت أسبابه ، ويستقبل الأحداث بثبات ، ويأتيه فرج ربنا ، وعندما نقرأ القرآن يجب أن نلتفت إلى اللقطات العقدية فيه ، فقد عرفنا مثلاً : أن سيدنا موسى عندما أراد أن يأخذ بنى إسرائيل من فرعون ويخرج بهم ، وقبل أن يصل بهم إلى البحر تنبه لهم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم ، وكان قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم ، فقال قوم موسى إيماناً بالأسباب :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

بالله أأحد يكذِّب هذه المقولة ؟! لا ، فماذا قال موسى عليه السلام ؟ لم يقل مثلما قال قومه ، ولكنه نظر للمُسبب الأعلى فقال بملء فيه :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهل تُكذَّب مقولته ؟ لا. لا تُكذب ؛ لأنه لم يقل : « كَلَّا » اعتماداً على أسبابه . فليس من محيط أسبابه أن يخرج من مثل هذا الموقف ، بل قال : « إن معى ربى سيهدين » ، هذه ثمرة الإيمان ، فلما قال : « إن معى ربى سيهدين » ، ماذا قال له الله ؟

قال له :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

لم يقل له : اهجم عليهم واغلبهم ، لا. بل قال : « اضرب بعصاك البحر » ؛ كى يعطى الشىء ونقيضه ، ولتعرف أن مرادات الحق سبحانه وتعالى تعطى الشىء ونقيضه ، ولا أحد من البشر يقدر أن يصنع مثل ذلك ، فلما قال له : اضرب بعصاك البحر ، ضرب موسى البحر بالعصا ، وكان موسى يعلم قانون الماء استطراقا وسيولة ، لكن ها هى ذى المعجزة تتحقق :

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

و« الطود » هو الجبل ، والجبل فيه صلابة ، والماء فيه رخاوة . فكيف انتقلت الرخاوة إلى صلابة ؟ إن الماء مهمته الاستطراق ، أى لا يمكن أن توجد منطقة منخفضة والماء أعلاها ، بل لابد أن ينفذ منها ، وعندما أطاع موسى أمر الله أراد أن يطمئن بأسباب البشر ، فأراد أن يضرب البحر كى يعود البحر مثلما كان ؛ حتى لا يأتى قوم فرعون وراءه فقال له ربنا :

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى : اتركه كما هو على هيئته قارًا ساكنا ؛ لأننى أريد أن يغريهم ما يرون من اليبس فى البحر فينزلوا ، فأعيد الماء إلى استطراقه وأُطْبِقهُ عليهم ، فأكون قد أنجيت وأهلكت بالشىء الواحد .

يقول الحق : « الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » وكيف ذلك ؟

بعد موقعة أُحد جاء حُيَىّ بن أخطب وكعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق ، وأبو رافع . هؤلاء هم صناديد اليهود ، وأخذوا أيضاً سبعين من اليهود معهم ونزلوا على أهل مكة ، ونقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله . وبعد ذلك نزل كعب ابن الأشرف ـ زعيمهم ـ على أبى سفيان وقال له : نريد أن نتعاهد على أننا نقف أمام محمد . فقال أبو سفيان : أنت صاحب كتاب ، وعندك توراة ، وعندك إيمان بالسماء ، وعندك رسول ، ونحن ليس عندنا هذا ، و« محمد » يقول : إنه صاحب كتاب ورسول ، إذن فبينكما علاقة الاتصال بالسماء ، فما الذى يدرينا أنك متفق معه علينا فى هذه الحكاية ؟ إننا لا نأمن مكرك ، ولن نصدق كلامك هذا إلا إذا جئت لآلهتنا وأقمت مراسم العبادة عندها فسجدت لها .

و« الجبت والطاغوت » هما صنمان لقريش ، وذهب إليهما اليهود أصحاب التوراة الذين عندهم نصيب من الكتاب وخضعوا لهما ، أو « الجبت » هو كل من يدعو لغير الله سواء أكان شيطاناً أم كاهناً أم ساحراً ، فإذا كان هذا هو « الجبت » . فـ « الطاغوت » من « طغى » وهو اسم مبالغة وليس « طاغيًا » . . بل « طاغوت »

وهو الذى كلما أطعته فى ظلم ارتقى إلى ظلم أكثر . . وسواء أكان الجبت والطاغوت صنمين أم إلهين من الآلهة التى يتبعونها ، المهم أن وفد اليهود خضعوا لهم وسجدوا ، لكى تصدق قريش عداء اليهود لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك سأل كعب بن الأشرف أبا سفيان : ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له : فارَق دين آبائه ، وقطع رحمه وتركهم وفر إلى المدينة ، ونحن على غير ذلك . نحن نسقى الحجيج ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى ـ الأسير ـ ونصل الرحم ، ونعمر البيت ونطوف به . وعظّم أبو سفيان فى أفعال قريش !، فقال الذين أوتوا الكتاب ـ لعداوتهم لمحمد ـ قالوا لأبى سفيان وقومه : أنتم أهدى من محمد سبيلا !

ويوضح ربنا : يا محمد انظر لعجائبهم ؛ إنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، ومع ذلك فعداوتهم لك ووقوفهم أمام دينك وأمام النور الذى جئت به ، جعلهم ينسون نصيبهم من الكتاب ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ وهم القوم أنفسهم الذين كانوا يقولون للعرب قديماً : إنه سيأتى نبى منكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . لكن هاهم أولاء يذهبون ويؤمنون بالطاغوت والجبت ، فهل عند مثل هؤلاء شىء من الدين ؟

إن الحق سبحانه يريد أن يطمئن رسول الله بأن هؤلاء انعزلوا عن مدد السماء ، فإن نشب بينك وبينهم حرب أو خلاف فاعلم أن الله قد تخلى عنهم لأنهم تركوا النصيب من الكتاب الذى أوتوه . وإياك أن يأتى فى بالك أن هؤلاء أصحاب كتاب .

إن الحق يطمئن رسوله أنه سبحانه قد تخلى عنهم وأن الله ناصرك ـ يا محمد ـ فلا يغرنك أنهم أصحاب مال أو أصحاب علم أو أصحاب ثروات ، فكل هذا إلى زوال ؛ لأن حظهم من السماء قد انقطع ؛ ولأن الشرك قد حازهم وملكهم وضمهم إليه وقد جعلوا العداوة لك والانضمام إلى الكفار الذين كانوا يستفتحون عليهم ببعثك ورسالتك ، ثمناً لأن يتركوا الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

وقوله: « أولئك » هى اسم إشارة مكون من « أولاء » التى للجمع ، ومن «الكاف» التى هى لخطاب رسول الله ، ونحن ـ المسلمين ـ فى طى خطابه صلى الله عليه وسلم ، « أولئك » هى للذين أوتوا نصيبا من الكتاب ويؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أو « أولئك » لكل من اليهود والمشركين ، ولنأخذها إشارة لهم جميعاً ، فى قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله » و« اللعن » إما أن يكون « الطرد » ، وإما أن يكون « الخزى » وإما أن يكون « الإهلاك » .

وكيف يلحق الله الخزى بالكافرين ؟ لأنك تجد المد الإسلامى كل يوم يزداد ، وهم تتناقص أرضهم :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

« أولئك الذين لعنهم الله » . . إذن فالطارد هو الله ، فحين يكون الطارد مساوياً للمطرود، ربما صادف من يعينه، لكن إذا كان الطارد هو الله فلا معين للمطرود ، « ومن يلعن الله » أى من يطرده ربنا « فلن تجد له نصيراً » ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مادام قد طرده . . فسبحانه يُدخل فى رُوع الناس كلهم أن يتخلوا عنه لأى سبب من الأسباب فلا ينصره أحد « أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾

وما هى حكاية قوله : « أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا »؟

إنه ـ سبحانه ـ يصفهم بفرط البخل وشدة الشح ، أى أنهم ـ فى واقع الأمر ـ ليس لهم ملك الدنيا وليس لهم ـ أيضا ـ ملك الله ؛ فالملك له وحده ـ جل شأنه ـ يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولكنهم لو أعطوا ملك الدنيا وملك الله لبخلوا وضنوا بما فى أيديهم . كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أى إنكم تخشون الإنفاق حتى لا تقل الأموال عندكم ، فلو أخذتم خزائن ربنا فستقولون لو أخذنا منها وأعطينا الناس لقلّت ! وفحوى العبارة : أن كل هؤلاء سواء أكانوا كفار قريش أم كبراء اليهود ، كانوا يحافظون على مكانتهم وأموالهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليسوى بين الناس ، فمن الذى يحزن ؟ الذى يحزن هم الذين كانت لهم السيادة لأنهم لا يريدون أن تتساوى الرءوس ، وياليتهم عندما أخذوا السيادة جعلوها خيراً للناس ، لكنهم لم يفعلوا . فلو كان لهم الملك والأموال لن يُعطوا للناس نقيراً ؛ لأن الإنسان بطبيعته لا ينزل عن جبروته ؛ لأن هذا الجبروت يعطيه سلطاناً ، ومادام الجبروت أعطاه سلطاناً فلا يلتفت إلى حقيقة الإيمان ، فإن خير الخير أن يدوم الخير ، فليس فقط أن تكون فى خير وسلطة لكن اضمن أنه يدوم ، وهذا الدوام ستأخذه بعمر الدنيا وأمدها قليل وعمرك فيها غير مضمون ، إذن فدوام الخير هناك فى الآخرة :

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فأنتم إن كنتم تحرصون على هذا الجاه ، وتريدون أن يكون لكم هذا الملك والجاه والعظمة فهل أنتم تعطون الناس من خيركم هذا حتى يكون هناك عذر لكم فى الحرص على المال بأن الناس تستفيد منكم ؟

فلماذا تريدون أن يديم ربنا عليكم هذه وأنتم فى قمة البخل والشح ؟ لا يمكن أن يديمها عليكم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الفجر يوضح هذه العملية :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إذن فالذى عنده نعمة يقول : (ربى أكرمن) ، والذى ليس عنده نعمة يقول : (ربى أهانن) ، فيقول الحق تعقيباً على القضيتين (كلا) .

ومادام سبحانه يقول تعقيباً على القضيتين : (كلا) فمعنى هذا أن كلا الطرفين كاذب ؛ فأنت تكذب يا من قلت : إن النعمة التى أخذتها دليل الإكرام ، وأنت كذاب أيضاً يا من قلت : عدم المال دليل الإهانة ، فلا إعطاء المال دليل الإكرام ، ولا سلب المال دليل الإهانة . وهى قضية غير صادقة وخاطئة من أساسها . وقال الحق فى حيثيات ذلك :

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أى عندكم المال ولا تكرمون اليتيم ، إذن فهذا المال هو حجة عليكم ، فهو ليس إكراما لكم بل سيعذبكم به . ويضيف سبحانه :

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فكيف يكون المال ـ إذن ـ إكراماً وهو سيأتيك بمصيبة ؟ فعدمه أفضل ؛ فالمال الذى يوجد عند إنسان ولا يرعى حق الضعفاء فيه هو وبال وشرّ ؛ لأن الحق يقول :

﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

فإن بخلت كثيراً فستطوّق بغُل أشد ؛ ولذلك عندما يشتد عليه الغُلّ يقول : يا ليتنى خففت هذا الغل ، والحق يتساءل فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لماذا يتفقون مع معسكر الشرك ، ويتركون النصيب الذى أعطوه من الكتاب ، ويذهبون ليقولوا للذين كفروا : أنتم أهدى من محمد سبيلاً مع أنهم يعلمون بحكم ما عندهم من نصيب الكتاب أن محمداً على حق ؟.

لقد كانوا يحافظون على سيادتهم ، ومعسكر الشرك يحافظ على سيادته ، ونعلم أن اليهود كانوا فى المدينة من أصحاب الثروات ، وكانوا يعيشون على الربا ، وهم أصحاب الحصون ، وأصحاب الزراعات وأصحاب العلم ، إذن فقد أخذوا كل عناصر السيادة . وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تزلزلت كل هذه المسائل من تحت أقدامهم ، وحزنوا . وكذلك كفار قريش : كانت لهم السيادة على كل الجزيرة ، فلا يستطيع أحد من أى قبيلة فى الجزيرة أن يتعرض لقافلة قريش ؛ لأن القبائل تخاف من التعرض لهم ، ففى موسم الحج تذهب كل القبائل فى حضن قريش . والمهابة المأخوذة لهم جاءت لهم من البيت الحرام الذى حفظه الله ورعاه وهزم من أراده بسوء وردّ كيده ودمره تدميرا تاما . كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

وعلّة هذه العملية تأتى فى السورة التالية لها ، وهى قوله سبحانه :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾

(سورة قريش)

فلولا أنه سبحانه جعل هذا البيت لعبادته لانتهى وانتهت منهم السيادة فلا يقدرون أن يذهبوا إلى رحلة الشتاء ولا إلى رحلة الصيف ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة قريش)

فسبحانه الذى جعل لهم السيادة والعزّ . وهو :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة قريش)

وجاء لهم بثمرات كل شىء ، وآمنهم من خوف حين تسير قوافلهم فى الشمال وفى الجنوب .

« أم لهم نصيب من الملك » فإذا كان لهم هذا النصيب ، فلا يأتون الناس نقيرا أى لا يعطونهم الشىء التافه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

والحسد هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ربنا قد اصطفاه واختاره للرسالة ،

ولذلك قال بعض منهم :